الفصل الثالث

أسلوب الاستفهام وبلاغته وجمالياته

توطئة

يعدّ أسلوب الاستفهام أحد أساليب الإنشاء الطلبي في الجملة العربية سواء كان لهدف محدد ومباشر أم كان لتصور إيحائي جمالي غير مباشر عند المتكلم. فالاستفهام لا يبحث فيه المتكلم في أحايين كثيرة عن إجابة محددة؛ وإنما يهدف إلى تصور ما يتحدث عنه فيخرجه عن حقيقته إلى مقاصد شتى؛ ويكون بوساطة أدوات سميت بأدوات الاستفهام وهي تستعمل في أقسامه. وحينما نتناول هذا الأسلوب علينا ألا نفصل بين الأداة والكلمة التي ترتبط بها؛ لأنهما كالكلمة الواحدة في المعنى؛ وإن حذفت الأداة في بعض المواضع... ومن ثم فالوحدة المعنوية الأولية لجملة الاستفهام الإنشائية لا تتجزأ ولا تقبل القسمة البلاغية وإن تعدد مجالها الحيوي وتأثيراتها النفسية.

ولا مراء في أن أسلوب الاستفهام أسلوب لغوي ـ قبل كل شيء ـ وأساسه طلب الفهم؛ والفَهْم صورة ذهنية تتعلق بشخص ما أو شيء ما، أو بنسبة أو بحكم من الأحكام على جهة اليقين أو الظن. وله قسمان: حقيقي ومجازي؛ وكلاهما لقي عناية البلاغيين العرب قديماً وحديثاً[32] وتعرضوا لأغراضهما وإن لم تجتمع متكاملة كما هي لدينا.

القسم الأول : الاستفهام الحقيقي

هو طلب العلم بشيء اسماً أو حقيقةً أو صفة أو عدداً لم يكن معلوماً من قبل، أو هو الاستخبار الذي قيل فيه: طلب خبر ما ليس عند المتكلم، أو هو ما سبق أولاً؛ ولم يفهم حق الفهم فطلب فهمه من المخاطب فإذا سئل عنه ثانياً كان استفهاماً[33]. أي إن المتكلم يطلب من المخاطب أن يحصل لديه فهم دقيق عن أمر لم يكن حاصلاً قبل سؤاله عنه. وقد استعمل البلاغيون مصطلح (الاستفهام) لكليهما معاً في أدوات الاستفهام كلها، كما يأتي:

1 . **الحروف**؛ وهي حرفان:

أ . الهمزة:

خُصَّت بأمور لم تعرف بها بقية أدوات الاستفهام وهي:

1 ـ تحذف ولو تقدمت على (أم) أو لم تتقدمها، ، فمن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة:

فو الله ما أدري وإن كنتُ دارياً بسَبْعٍ رَمَيْنَ الجمرَ أم بثمانِ؟

أراد: أَبسبع... ولم تتقدم (أم) في قول الكميت:

طَرِبْتُ وما شَوْقاً إلى البِيْضِ أَطْرَبُ ولا لَعِباً منِّي؛ وذو الشَّيْبِ يلعَبُ؟

أراد: أَوَ ذو الشيب يلعب؟

2 ـ تدخل على الإثبات ـ كما تقدم في الأمثلة ـ وعلى النفي كقوله تعالى: ﴿أَلم نَشْرح لكَ صَدرك﴾ (الانشراح 1/94).

3 ـ تتصدر الهمزة جملتها، بينما تتأخر الأدوات الأخرى عن حروف العطف مثلاً...

4 ـ تكون الهمزة للتصديق وللتصور، بينما تستعمل (هل) للتصديق فقط؛ وبقية أدوات الاستفهام للتصور؛ ومن الشواهد على ذلك كله قول عدي بن زيد:

أيهـا الشـامتُ المعيِّـرُ بالـدهر أأنـــتَ المُبَـــرَّأ الموفـــورُ؟!

والتصديق: هو طلب السؤال عن شيء حدث وقوعه أم لا؛ وتكون الإجابة عليه بكلمة (نعم) للإثبات، و(لا) للنفي؛ كقولنا: (أنجح زيد؟) وقوله تعالى: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ (الأنبياء 62/21). فالتصديق إدراك نسبة الفعل بدقة، لأن المتكلم مُتَردّد بين إثبات الشيء ونفيه. ولهذا يطلب تحديد الإجابة وتعيينها، ومن ثم يمتنع ذِكْر المعادل بـ(أم)؛ فإذا استعملت الهمزة للتصديق؛ وجاء معها (أم) فهي أم المنقطعة وتكون بمعنى (بل) وكذا استعملت مع (هل). فالمتصلة لا يستغني ما قبلها عما يليها؛ عكس المنقطعة، فإذا قلنا: أنجح زيد أم عمر؟ فالسؤال عن عمرو، لأننا لأمرٍ ما؛ كالنسيان، وقع لفظ (زيد) على لساننا وهو غير مقصود... وهذا يعني أن (أَم) بمعنى (بل).

والتصور: هو إدراك المفرد؛ والاستفسار عن كيفية حدوث فعل ما؛ ويتلو همزة التصور المسؤول عنه؛ وتقترن بـ (أم) المعادلة ـ غالباً وتسمى هنا (المتصلة).

وتكون الإجابة على ذلك بتحديد الفعل، ومن قام به على وجه الدقة، على اعتبار أن المتكلم عارف بأن الحدث قد وقع لكنه لا يعرف كيفيته بدقة؛ كقولنا: (أزيد قائم أم عمرو؟) وقال الزركلي:

حُلُمٌ على جَنباتِ الشام أم عِيْدُ لا الهَـمُّ هـمٌّ ولا التسـهيد تَسْـهيد؟!

لهذا كله يُسأل عن المسند إليه سواء كان مبتدأً أم فاعلاً؛ كقولنا: (أسافر زيد أم خالد؟) أو قولنا: (أزيد نجح أم محمد؟)...

ويُسْأَل بها عن المسند كقولنا: (أذاهبٌ أنت غداً إلى دمشق أم ذاهب إلى حلب؟)....

ويسأل بها عن الفَضلة؛ كالمفعُول به مثل: (أزيداً زرتَ أم خالداً؟) والحال مثل: أراكباً جئتَ أم ماشياً، والظرف مثل: (أغَداً تذهبُ أم بعده؟). ومن المفعول به قوله تعالى: ﴿قل آلذكرين حَرَّم أَم الأُنثيين أَمْ ما اشتملت عليه أَرحام الأنثيين﴾ (الأنعام 144/6)....

وتخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي إلى الاستفهام المجازي في عدة مواضع وسنشير إليها هنا وسنفصّل القول فيها من بعدُ؛ وهي (التقرير، والتسوية، والإنكار الإبطالي والتوبيخي، والتهكم، والأمر، والتعجب والاستبطاء). وقيل: إنها ثمانية ولا صحة لغيرها، وتستعمل معها (أم) أو لا؛ ولا يحتاج الاستفهام إلى إجابة[34]. ومن ثم فالدراسة البلاغية لأسلوب استعمال همزة الاستفهام مع الشيء المسؤول عنه تؤكد الشكل البلاغي المثير لها دون غيرها وإلا لكانت هناك أداة استفهام واحدة. وبمعنى آخر إن لكل أداة وظيفة تزيح الدراسة النقاب عنها.

ب. هل:

وهو حرف وضع لطلب التصديق الإيجابي دون التصور، ودون التصديق السلبي، كما تختص بالاستقبال -غالباً -، وإنْ دخلت على الماضي كما في قول زهير:

فمَن مبلغُ الأَحْلافِ عنّي رسالةً وذُبْيانَ: هل أقسمتُمُ كل مُقْسَمِ؟

ولا تدخل على الشرط، ولا على (إنَّ)، ولا على اسم بَعْدَه فعل في الاختيار. وقد تقع بعد العاطف لا قبله، وبعد (أَمْ) كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتوي الأَعمى والبصير أم هَلْ تستوي الظلمات والنور﴾ (الرعد 16/13) وقد يراد بها النفي فتدخل على الخبر كقوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (الرحمن 60/55)، وتأتي بمعنى (قد) مع الفعل كقوله تعالى: ﴿هل أَتى على الإنسان حِيْنٌ من الدهر﴾ (الإنسان 1/76). وقيل غير هذا[35] وما تقدم كله يدخل في الاستفهام المجازي لـ(هل) ولا يحتاج إلى إجابة بينما الاستفهام الحقيقي الذي وضع للتصديق يحتاج إلى إجابة. وفيه تُسمى (هل) بسيطة؛ لأنه يستفهم بها عن وجود شيء في نفسه؛ و الجواب يكون بـ (نعم) للإثبات و(لا) للنفي. ولهذا لا يجوز أن تستعمل (أم) المعادلة معها؛ وإذا استعملت فهي بمعنى (بل) وتُسمّى المنقطعة؛ كقولنا: (هل نجح زيد أم عمرو؟). فالسؤال عن عمرو لا عن زيد؛

فكأن السؤال: (بل نجح عمرو؟) وكقوله تعالى: ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾ (الطور 39/52) أي (بل ألهُ البنات...؟) وقد تستبدل (أل) بـ(هل) فنقول: أل فَعَلتَ؟ على معنى: هل؛ وهو إبدال الخفيف ثقيلاً كما في الآل عند سيبويه[36].

2 . أسماء الاستفهام:

أسماء الاستفهام إما مبنية وإما معربة، وتستعمل للتصوّر فقط... وربما يحدّد فعل التصور؛ ويوضَّح بالإجابة حين يُعَيَّن المسؤول عنه... والمبنية منها سبعة أسماء والمعربة اسم واحد، كما هو مبين فيما يأتي.

1 . الأسماء المبنية:

وتبنى على حركة آخرها؛ وهي:

1 . **ما**: تستعمل لغير العاقل؛ ويطلب بها السؤال عن معرفة حقيقة الشيء المستفهم عنه أو شرحه. فمن معرفة الحقيقة قولنا: (ما الإنسان؟ أو ما العَسْجد؟).

ومن معرفة شرح حاله أو صفته قوله تعالى: ﴿ادعُ لنا ربَّك يبيِّن لنا ما هي﴾ (البقرة 68/2)؛ وقوله: ﴿ادعُ لنا ربَّكَ يبيِّنُ لنا ما لونُها...﴾ (البقرة 69/2) وقوله: ﴿وما تِلْكَ بيمينكَ يا موسى...﴾ (طه 17/20) وقوله: ﴿ما سَلَكَكُم في صَقَرَ﴾ (المدثر 42/74). فاستعمل (ما) لم يكن فقط للدلالة على غير العاقل، وإنما أبرزت معنى المباينة الدالة على الإبداع، فهي توحي بالزجر والإنذار... أما من جهة حذف (الألف) في (ما) فإنه يقع في (ما) الاستفهامية للتفريق بينها وبين (ما) الموصولية، أي للتفريق بين الاستفهام والخبر، كقوله تعالى: ﴿فيمَ أَنتَ مِنْ ذكراها﴾ (النازعات 43/79). وحذف الألف مع الجر واجب، وندر إثباته إلا للضرورة الشعرية كما في قول حسان بن ثابت:

على ما قام يشتمُني لئيمٌ كخِنْزيرٍ تَمَرَّغ في دَمانِ؟!

ويجوز إثباتها في الاستفهام التعجبي على مَنْ ذهب لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم﴾ (آل عمران 159/3) فهي بمعنى: فبأيّ

obeikandl.com

رحمةٍ... أما من جعل (ما) في هذه الآية زائدة فقد خرج من الموضوع كله، فهي زائدة للتوكيد[37].

وإذا رُكِّبَتْ (ما) مع (ذا) لا تحذف ألفها، وتكون أداة متكاملة، كلها اسم جنس بمعنى شيء، كقول المثقب العبدي:

دَعِـــي مـــاذا عَلمْـــتُ؟ ســـأَتَّقيهِ ولكِـــنْ بالمُغَيَّـــبِ نَبِّئـــيني

فالجمهور أعرب (ماذا) مفعولاً به لفعل (دعي)[38]. واختلف في شأن تركيب (ماذا) فمنهم من لم يرض بأن تكون كلها اسم جنس، وذهبوا إلى أن (ذا) إما موصولية وإما اسم إشارة؛ وعليه قوله تعالى: ﴿يَسألونكَ: ماذا ينفقون؟﴾ (البقرة 219/2).

2 ـ **مَنْ**: اسم يستعمل للعاقل ـ غالباً ـ ويُسْتَفسر به عن الجنس، كقوله تعالى: ﴿قال: مَنْ يُحيي العظام وهي رميم﴾ (يس 78/36) وكقولنا: (مَنْ سافر اليوم؟ ومَنْ فتح إفريقيَّة؟)؛ وقال حافظ إبراهيم:

مَـنِ المـداوي إذا مـا عِلَّـةٌ عرضَـتْ؟ مَـن المُدافعُ عـن عِـرْضٍ وعَـنْ نَشَـبِ؟!

ويجوز تركيب (مَنْ) و(ذا) لتصبح كلمة واحدة، لأن كلاً منهما مبهم، كقولنا: (منذا قابلت؟) (منذا قدَّمت وأخَّرْت؟). واختلف اللغويون في شأن ذلك؛ فمنهم من رأى زيادتها؛ ومنهم مَنْ رأى أنها موصولة[39] محتجين بقوله تعالى: ﴿مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ (البقرة 245/2).

3 ـ **كم**: يأتي هذا الاسم بالاستفهام وغيره؛ وهو اسم لعدد مبهم الجنس والمقدار، وهو عند ابن هشام ليس مركباً خلافاً لما ذهب إليه بعض اللغويين كالكسائي والفرّاء، ولا خلاف في اسمية الاستفهامية. و(كم) اسم استفهام مفتقر إلى تمييز منصوب، ويتصدر جملته؛ كقوله تعالى: ﴿كم لبثتم؟ قالوا: يوماً أو بعضَ يوم﴾ (الكهف 19/18) وكقولنا: (كم كتاباً قرأت؟). ويجوز أن تجر (كم) بحرف جر، وحينئذٍ يجر التمييز معها، كقولنا: (بكَمْ دِرْهمٍ اشتريتَ الكتاب؟) ويجوز حذف التمييز (كم مالُك؟!).

obeikandl.com

4 ـ **أَيْنَ**: ظرف يستفهم به عن المكان الذي حلَّ فيه الشيء كقوله تعالى: ﴿يقول الإنسان يومئذ: أين المَفَرّ؟﴾ (القيامة 10/75) وكقولنا: أين سافرت؟ وكقول المرقش الأكبر:

إنَّا لِمن معشرٍ أَفنى أوائِلَهم قِيْلُ الكماةِ: ألا أينَ المُحَامونا؟

ويجوز أن تسبق بحرف الجر (من) للدلالة على مكان بروز الشيء، مثل: (من أين تخرجّت؟).

5 ـ **متى**: المشهور فيها أنها ظرف (استفهام وشرط) والاستفهام فيها لتعيين الزمن ماضياً أو مستقبلاً؛ كقولنا: (متى سافر أحمد؟ ومتى تعود؟) وقال حافظ إبراهيم:

متى نراه وقد باتتْ خزائنه كنزاً من العلم لا كنزاً من الذَهبِ؟!

وقد وقعت حرف جر في لغة هذيل، وليس هنا الحديث عنه؛ وعن اسم الشرط.

6 ـ **أيَّان**: ظرف بمعنى (الحِيْن) يطلب به تعيين زمان المستقبل فقط؛ كقولنا: (أيان تسافر؟ أي في أيّ وقت).

ووقع استعماله في القرآن الكريم في غير المعنى الحقيقي، إذ وقع في التفخيم أو التهويل مثل قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة: أَيَّانَ مُرْساها؟﴾ (الأعراف 187/7) و(النازعات 42/79) أو في غير ذلك.

واعلم أننا حين نفسر الاستفهام على هذا الوجه إنما لأنه محض المعنى؛ ليتنبه السائل على الحقيقة فيرجع إلى نفسه ويخجل من السؤال الذي يطرحه، ثم يأتي جواب الآية ليردعهُ...[40].

7 ـ **كيف**: اسم يستعمل للسؤال عن الحال سواءً وقع اسماً صريحاً يُخْبَرُ به كقولنا: (كيف أنت؟) و(كيف كنت؟) أم وقع فضلة كقولنا: (كيف جاء

obeikandi.com

زيد؟) ومثله قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أُمَّةٍ بشهيد﴾ (النساء 41/4)، وقول الفرزدق:

إلى الله أَشكو بالمدينة حاجةً وبالشام أخرى؛ كيف يلتقيان؟

فوصف الحال ثابت في الاستفهام، وهو يدل على أن السقم والتذمر موجود ثابت فيه، وبهذا تتجلى جماليته.

8 ـ **أَنَّى**: يستعمل هذا الاسم للسؤال عن المكان والزمان والحال تبعاً للسياق، وتقوم مقام (أين أو متى، أو كيف). فهو بمعنى (من أين) في قوله تعالى: ﴿يا مَرْيَمُ، أَنَّى لك هذا﴾ (آل عمران 57/3) وكقولنا: (أنَّى تجلس؟).

وهو بمعنى (متى) في قولنا: (أنَّى تذهب؟).

وبمعنى (كيف) في قوله تعالى: ﴿أَنَّى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾ (البقرة 259/2).

والسياق يدل على أن الإلزام بمجيء الشيء بعد وصف ثابت بقدرة الله، كما تدل عليه بقية الآية[41].

2 ـ الأسماء المعربة؛ وهي اسم واحد هو (أيّ).

أيٌّ: اسم استفهام يستعمل مُشدَّداً كقوله تعالى: ﴿أَيُّكم زادَتْه هذه إيماناً﴾ (التوبة 124/9) أي بتضعيف الياء، وقد يخفف كما في قول الفرزدق يمدح فيه نَصْر بن سيّار:

تنظَّرْتُ نَصْراً والسماكينِ أيْهُما عليَّ من الغَيْث استَهَلَّتْ مواطرُهْ

ويجوز أن يسبق بحروف قبله كقوله تعالى: ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ (الرحمن 13/55).

هذا من جهة بنية الكلمة في الاستعمال، أما من جهة استعمالها اسم استفهام حقيقي فإنها تُستعمل بمعنى أسماء الاستفهام المبنية كلها تبعاً

obeikandl.com

لإضافتها إلى ما بعدها... فيطلب بها تحديد شيء في أمر مشترك وعام كقولنا: (أَيُّكما أكبر سناً؟). فالمتكلم يستفسر عن تمييز شيء مشترك بينهما وهو كبر السن، ولكن أحدهما زاد في العمر على الآخر؛ ولهذا يطلب التحديد.

ويكتسب الاسم (أي) دلالته من إضافته، فالإضافة توضح في أيٍّ من معاني الاستفهام استعمل، كقولنا: (أيُّ الطلاب عندك؟) كأننا نسأل: (مَنْ من الطلاب عندك؟)... أو (أَيَّ يوم تسافر؟) كأننا نسأل: (متى تسافر؟) وكقوله تعالى: ﴿أيُّكم يأتيني بعرشها﴾ (النمل 38/27)، أي (مَنْ منكم)؟ فأي الاستفهامية تضاف إلى المعرفة وإلى النكرة، وقد تقطع عن الإضافة نحو: (أيٌّ جاء؟) و(أيًّا أكرمتَ؟).

فالصلة الجمالية بين أُسلوب الاستفهام الحقيقي وبين الجمال إنما تتحقق بالتفاعل الواقعي مع الصفات والأفكار على مستوى الطابع الفكري والاجتماعي والنفسي وفق منظور الموضوع الحقيقي الذي يرتبط بنوعية الطلب ووظيفته. فالمحتوى يفصح عن حقائق ومدركات تنهض بالصياغة الجمالية بوساطة الاستفهام الحقيقي، على حين تغدو صياغة بعيدة عن المباشرة في أساليب الاستفهام المجازية، وهو ما نراه فيما يأتي.

القسم الثاني: الاستفهام المجازي

أبرز البلاغيون العرب في الدراسات الأدبية والقرآنية أن أدوات الاستفهام لا تتوقف عند المعاني الأصلية التي ينتهي إليها أسلوب الاستفهام الحقيقي الذي يتطلب إجابة محددة. ولكن الاستفهام قد لا يبحث عن إجابة محددة؛ وإنما يبحث عن تصور ما للمتكلم دون أن يستفسر عن شيء؛ وبهذا يخرج أسلوب الاستفهام إلى أسلوب مجازي لا يطابق في دلالته المجازية الدلالة الحقيقية فيصبح بمعنى الخبر، لا بمعنى الإنشاء[42].

obeikandl.com

وحين يخرج الاستفهام إلى أسلوب مجازي إنّما يؤدي ظاهرة جمالية وبلاغية لا تعرف في الأسلوب الحقيقي الذي يسأل به المتكلم عن شيء معروف ومشهور، أو عن معنى يفهم من السياق؛ ويتوجه فيه المتكلم إلى نفسه قبل أن يتوجه به إلى الآخرين.

وإذا كان البلاغيون قد اختلفوا في عدد المعاني التي خرج إليها أسلوب الاستفهام فإن الأسلوب المجازي يعتمد على السلائق والذوق والسياق والقرائن التي يدور حولها الكلام... ونرى أنه لا يحصر الأسلوب المجازي للاستفهام بمعنى أو بمعانٍ محددة؛ وإن اتجهت الدراسات البلاغية القرآنية اتجاهاً قد لا يتطابق مع الدراسات البلاغية الأخرى[43]. فالتراث البلاغي حضور متفاوت في الذهن البشري، ونوع معرفي غير ثابت. ولهذا سنسوق أساليب الاستفهام المجازية المشتركة بين تلك الدراسات ثم نبيّن بعض الفوارق عند عدد من دارسي أساليب الاستفهام في القرآن الكريم، لا على سبيل التضاد بل على جهة الاستدلال للوصول إلى معرفة جمالية نوعية بأساليب البلاغة كلها...

1. التقرير:

التقرير هو الإثبات مع الوضوح؛ وكذلك هو الإثبات مع التسليم... وهو لا يحتاج إلى جواب في الاستفهام المجازي؛ لأنه يقرر فكرة من الأفكار؛ يحمل المخاطب على الإقرار بها؛ وبمعنى آخر السؤال نفسه جواب ثابت. ويستعمل في هذا الأسلوب الفعل المنفي المسبوق ـ غالباً ـ بهمزة الاستفهام؛ وإن جاز استعمال الأدوات الأخرى ـ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يجدك يتيماً فأوى﴾ (الضحى 6/93) والمعنى (وجدك) وقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَل كَيْدَهم في تضليل﴾ (الفيل 3/105) أي (جعل كيدهم...) وقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ (الانشراح 1/93) وقال البحتري:

أَلَسْتَ أَعَمَّهمْ جوداً وأَزكا إذا ما لم يكُنْ للحَمْدِ جابِ؟

فالهمزة إذا دخلت على نفي؛ فإنه لا يراد معنى النفي بل يراد تقرير ما بعده. وهذا يختلف كثيراً عن الأسلوب الآتي في الإخبار والتحقيق،[45] كما أنه

يختلف كثيراً عن الاستفهام الحقيقي الذي يحتاج إلى جواب.

2. الإخبار والتحقيق:

الإخبار هو الإعلام بالشيء، ويستعمل لإثبات أمر ما؛ لذا ارتبط بالتحقيق في أسلوب الاستفهام لأنه يتجه إلى إطلاع السامع أو تثبيت خبر لديه، أو أنه يرمي إلى كليهما معاً كقوله تعالى: ﴿ألا إنهم هُم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ (البقرة 12/2) وقوله: ﴿ألم نُرَبِّكَ فينا وليداً﴾ (الشعراء 18/26) والمعنى (إننا قد ربيناك فينا وليداً)؛ على حين دَلَّت في الشاهد الأول على التحقق لما بعدها والتنبيه عليه (ألا إنهم...)[46] ويستعمل فيه ـ غالباً ـ (همزة الاستفهام) ـ كما ورد في الأمثلة السابقة. وإذا تركنا الشكل اللغوي لأسلوب الاستفهام فعلينا أن نشير إلى أن انحرافه إلى سياق بلاغي مجازي بيَّن أنَّه منظومة اجتماعية وحياتية مثيرة...

وكذلك يستعمل فيه (هل) كما في قوله تعالى:

﴿هل أتى على الإنسان حِيْن من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ (الإنسان 1/76)؛ والمعنى (قد أتى على الإنسان)[47]. وقد تستعمل الهمزة مع لفظ (حقّ ـ حقاً) أو تستعمل مع النفي الذي يراد منه الإخبار والتحقيق؛ فهذا عَبْدُ يغوثَ يستعملها مع (حقاً)؛ ليوضح من خلالها ما آلت إليه الأمور بينه وبين من احتجزوا حريته، فراح يخاطب كل من يسمعه متحسراً على ذاته التي ستذهب إلى غير رجعة، فيقول:

أَحقّاً عبادَ اللهِ أَنْ لستُ سامعاً نَشيدَ الرِّعَاءِ المُعْزبين المَتَاليا

ومن استعمالها مع النفي قوله تعالى: ﴿أَليسَ ذلك بقادرٍ على أن يُحييَ الموتى﴾ (سورة القيامة 40/75).

ولما كانت لها هذه الرتبة من التحقيق مع النفي ندر أن تقع جملة بعدها إلا صُدِّرَتْ بما يتلقى به القسم على نحو ما؛ كقول حاتم الطائي:

أَمَا والذي لا يعلمُ الغيبَ غيرُهُ ويُحيي العظامَ البِيضَ وهيَ رَميمُ؟

ومثله قول صخر الهذلي:

أَمَا والذي أَبكى وأَضْحَكَ والذي أَمـاتَ وأَحيـا والـذي أَمْـرُهُ الأَمْـرُ؟

فالمعنى الذي يرمي إليه المتكلم في الاستعمال المجازي لأسلوب الاستفهام يتجه إلى معنى المعنى وفق ما يتطلبه السياق، لا وفق ما تبنى عليه الكلمات في التركيب النحوي، وبذلك يتركز مفهوم الجميل...

3. التسوية:

اختص أسلوب التسوية باستعمال (الهمزة) مع (أم) المعادلة؛ لأن الهمزة تستعمل للتسوية في الدلالة بين ما قبل (أم) وما بعدها، والجملة بعد الهمزة يصح حلول المصدر محلها... وتوهم غير باحث أنها تستعمل فقط مع (سواء) كما في قوله تعالى: ﴿سواء عليهم أَأَنْذَرْتَهم أم لم تُنذرهم لا يُؤمنون﴾ (البقرة 6/2). ودليل رأينا أنها تستعمل مع (ما أدري) ونحوه، قول الفرزدق:

و واللهِ مـا أدري، أجُـبْنٌ بجَنْـدَلٍ عـن العَـوْدِ أم أعيـت عليـه مضاربُهْ؟

ونستدل على ذلك أيضاً بقوله تعالى: ﴿وإن أَدْري أَقريبٌ أَمْ بعيدٌ ما توعدون﴾ (الأنبياء 109/21). وتستعمل كذلك مع تركيب (ما أبالي) ونحوه؛ كقول المتنبي:

ولسْتُ أُبالي بعْدَ إدراكيَ العُلَى أَكان تُراثاً ما تناولتُ أَمْ كَسْبَا؟

ومع (ليت شعري، وليت علمي) ونحوهما[48]، على اعتبار أن الصياغة تتصل بصور من التوازن والتنسيق بنسبة جمالية تؤكد الوعي الجمالي بالشكل والمضمون؛ ومنه قول الفرزدق:

أَلا ليتَ شعري ما أرادت مُجَاشِعٌ إلى الغَيْطِ أَمْ ماذا يقول أَميرُها؟

وقد يُمْزَج أسلوب التسوية بالتهكم والهجاء كما في قول حسان بن ثابت:

ومـا أُبـالي أَنَـبَّ بـالحَزْنِ تَـيْسٌ أمْ لحَـانـي بظهـرِ غَيْـبٍ لئـيمُ

فجمالية هذا الأسلوب إنما تنبثق من شبكة العلاقات المعنوية بين الكلمات وقد قامت على التساوي بين ما قبل (أم) وما بعدها، وهي تؤسس سياقات ومقاصد يجتهد المتكلم في إيصالها إلى المخاطب دون حاجة إلى ردٍّ أو جواب.

4. العَرْضُ والحضّ:

هذان أسلوبان متماثلان؛ وإن زاد أحدهما على الآخر في المعنى؛ فالعَرْضُ: طلب الشيء بلين، والحَضُّ: طلبه بقوة مرة بعد مرة؛ ويستعمل فيهما الهمزة مع (لا) فتصبحان (أَلاَ) وهما كالاسم الواحد؛ والطلب لا يراد منه الإجابة (بنَعم) أو (لا) وتختص بالفعل، ومن العرض قوله تعالى: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ (النور 22/24)؛ أما قول الشاعر عمرو بن قَعَّاس المرادي فعلى تقدير فعل محذوف:

أَلا رَجُلاً جزاهُ اللهُ خَيراً يَدُلُّ على مُحَصِّلَةٍ تُبيتُ؟

أي "أَلاَ تُرُوني رجلاً هذه صفته، فحذف الفعل مدلولاً عليه بالمعنى"، وقيل قول آخر[49]. فالشاعر يثبت حواراً طريفاً بينه وبين المخاطبين ليبينوا له حقيقة الأمر، ولكنه حوار يستند إلى الحث والحض... ويبدو أنه لم يجد جواباً إلا صمتاً كصمت أهل القبور.

ومن الحض قوله تعالى: ﴿أَلا تقاتلون قوماً نَكَثُوا أَيمانَهم﴾ (التوبة 13/9). فهو يحثهم على القتال؛ أي (قاتلوهم)؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿أَنِ ائتِ القومَ الظالمين❖ قومَ فرعون؛ أَلاَ يتقون﴾ (الشعراء 10/26 ـ 11)؛ أي (ائتهم وأمرهم بالتقوى).

إن فنيات التعبير وأشكاله الجمالية ماثلة في جوهر استعمال اللفظ وفق نظام مثير ودقيق ومتناسب النسق مع السياق دون أن يتخلى عن بنيته، ولو تعدد، كاتحاد همزة الاستفهام بـ (لا)[50].

5. الإرشاد والتوجيه والتذكير:

هذه معانٍ ثلاثة تجتمع في سياق بلاغي واحد في أسلوب الاستفهام المجازي. فهنا يراد بالاستفهام الإرشاد والتوجيه إلى أمر غير الذي تعوّده المتكلم أو السامع كما في قوله تعالى: ﴿قالوا: أتجعل فيها مَنْ يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدماء﴾ (البقرة 30/2). فالملائكة رأوا الجن يسفكون الدماء في الأرض ويفسدون فيها؛ لهذا خاطبوا الله ـ سبحانه ـ لما قرر أن يجعل بني آدم فيها؛ فتوجهوا إليه بالسؤال ليرشدهم عن أمر بني آدم؛ أم أن شأنهم سيكون شأن الجن؛ فكان قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قال: إني أعلم ما لا تعلمون﴾ (البقرة 30/2). ولما كان سؤالهم سؤال توجيه وإرشاد لم يستكبروا أن يسجدوا لآدم، بعكس إبليس الذي عصى أَمْرَ ربه، كما يستدل عليه من قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة: اسجُدوا لآدم فسَجدوا إلاَّ إبليسَ أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ (البقرة 34/2).

فالاستفهام المجازي يدل على السياق، وقد خرج إلى لطائف بلاغية جميلة وموحية؛ كما نجده في معنى التذكير الذي ينطوي عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى﴾ (الضحى 6/93) وغير ذلك من المعاني مما يدخل تحت هذا العنوان، [51] أو تحت عنوانات أخرى تجتمع في شاهد واحد، لأنه يؤوّل على غير معنى.

6. الاستئناس والإفهام:

استعمل هذا الأسلوب في القرآن الكريم؛ وهو يجمع بين (الاستئناس) و(الإفهام) معاً؛ لأنهما يرادان لذاتهما في شكل استفهامي مجازي لا يقصد منه الإجابة؛ لكنه يشي بجمالية عالية في الإيحاء. ويُفْهم من قوله تعالى: ﴿ما تلك بيمينك يا موسى﴾ (طه 17/20). فموسى كان يستأنس بعصاه ويستعملها لغاياته الخاصة؛ وحينما أَلقاها بأمر الله ﴿فإذا هي حيَّةٌ تسعى﴾ (طه 20/20) فَدبَّ الرعب في نفسه، فهَدَّأ الله روعه في قوله: ﴿قال: خُذْها ولا تَخَفْ سنُعيدُها

سِيْرتها الأولى﴾ (طه 21/20) أي نُرجعهُا إلى مبدئها الذي عرفه موسى وهو العصا غير المؤذية؛ وإنما المؤنسة... ومن ثم ليبيّن له الله أنه قادر على أن ينصره؛ ويفعل ما يشاء. فجمالية الاستئناس والإفهام تظهر في نَسقية السياق مراعاة لمقتضى الحال؛ أي أن السياق وحده قد أوضح أن الاستفهام المجازي في قوله ﴿ما تلك...﴾ وهو وحده الذي يفرض التحليل الدلالي والبلاغي[52]. فالسائل في الاستفهام الحقيقي يسأل عما يعلم وعما لا يعلم، ويحتاج إلى جواب؛ أما في الاستفهام المجازي فيتجه الكلام إلى استبطان الجواب في السؤال نفسه.

7. التشويق:

التشويق من جنس الشَّوْق؛ وهو حمل النفس على النزاع إلى الشيء؛ وتهييجها إليه. ولهذا قد يأتي الاستفهام لجذب النفوس وشدها إلى أمر حدث من قبل؛ أو أمر يكون فيه خير، فيستعمل لتصور ذلك كله؛ كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا: هل أَدُلُّكُم على تجارةٍ تُنْجيكم من عَذابٍ أَليم﴾ (الصف 10/61). فالمؤمنون يتشوقون إلى معرفة: ما التجارة التي تنجيهم بالسؤال (هل أدلكم)؟ ثم جاءت الآية التالية لتفسير تلك التجارة وإراحة النفس من عواطفها الفياضة وفضاءاتها الفكرية بقوله تعالى: ﴿تؤمنُوْنَ بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأَنفسكم، ذلكم خَيْر لكم إنْ كنتم تعلمون﴾ (الصف 11/61).

فالسياق في النص وحده من يكشف عن الجمالية الفنية للاستفهام المجازي، وكذلك نجده في قوله تعالى: ﴿قال: يا آدمُ؛ هَلْ أَدُلك على شجرة الخُلدِ ومُلْك لا يَبْلى﴾ (طه 120/20). فالشيطان وسوس لابن آدم وشوقه إلى شجرة الخلد بالسؤال (هل أدلك...). وهذا التشويق جعله يزلّ؛ ويتبع غواية الشيطان؛ فكان أن عصى ربه فأهبطه إلى الأرض.

ومن هنا تُصبح الرؤية الجمالية للإمام عبد القاهر الجرجاني أساس انبثاق رؤىً أخرى... فالانسجام والتناسب بين عناصر الجملة يستندان إلى علاقة

الجوار والاختيار التي تحقق شرف منزلة المعنى، فالألفاظ لا تتغير إلا بالتأليف أو ما سماه الجرجاني نظرية (النظم) [53].

8. الأمر:

يخرج الاستفهام إلى أسلوب مجازي يسمى الأمر؛ فيزيده إيحاءً جمالياً، لأن المقصود ليس الاستفهام الحقيقي كما في قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ (المائدة 91/5) أي (انتهوا)، وقوله: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ (هود 14/11) أي (أسلموا)... وهذا نحو قوله تعالى في آل عمران (20/3): ﴿أأَسلمتم؟﴾ أي (أَسلموا)؛ وكقوله تعالى: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ (النساء 75/4) أي (قاتلوا في سبيل الله)[54]. فالعبرة من هذا الاستخدام إنما هو في التركيب الذي يجسد أمراً غير حاصل وقت الطلب بأسلوب الاستفهام. ولهذا يصبح التركيب كالكلمة الواحدة؛ ما يكسبه جمالاً فريداً؛ وبلاغة موحية.

9. النفي:

كثر خروج الاستفهام إلى النفي في كلام العرب وأشعارها، وفي القرآن الكريم والحديث الشريف... ولعل هذا الأسلوب يثير المتلقي على جمالية من نوع بلاغي جديد وبديع كقوله تعالى: ﴿مَنْ يغفر الذنوب إلا الله﴾ (آل عمران 135/3) أي (لا يغفرها إلا الله)... وكقوله: ﴿من ذا الَّذي يَشْفعُ عنده إلا بإذنه﴾ (البقرة 255/2) أي (لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه). وكقوله: ﴿هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان﴾ (الرحمن 60/55) أي (ما جزاء الإحسان إلا الإحسان)[55] وقال أبو تمام:

هلِ اجتمعتْ أَحياءُ عدنانَ بمُلْتَحمٍ إلا وأنت أَميرُهَا؟

فلم تجتمع بطون عدنان في مكان لقتال إلا كنت أميرها. ومثله قول الشاعر:

هلِ الدَّهْرُ إلا سَاعةٌ ثم تَنْقضي بما كان فيها من بَلاءٍ ومن خَفْضِ؟

أراد: ما الدهر... ودليل النفي في الشاهدين انتقاضه بإلا؛ ومثله قول

obeikandl.com

البحتري:

هلِ الدهر إلا غَمْرةٌ وانجلاؤها وَشِيكاً وإلا ضَيْقةٌ وانفراجُها؟

فأسلوب الاستفهام (هنا) يعد دعوة للتفكير في حقيقة المعنى المراد وغير المباشر... وهو يحتاج إلى شيء من التأمل لمعرفته، ولعل التأمل -بحد ذاته- يثير جمالية من نوع خاص...

10. التمني:

هذا أسلوب آخر في أساليب الاستفهام كثر في كلام العرب وفي القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فهَل لنا من شُفَعاءَ فيشفعوا لنا﴾ (الأعراف 53/7) فالذين خسروا أنفسهم يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا ليعلموا غير الذي عملوه، ولكن هيهات لهم الرجوع[56]. فما استعمل أسلوب التمني الحقيقي بل استعمل الاستفهام؛ فجاء الأسلوب أعلى إيحاء.... وعليه أيضاً قول أبي العتاهية في مدح الأمين:

تذكَّرْ أمينَ اللهِ حقّي وحُرْمَتي وما كنتَ تُوليني لعَلَّك تذكرُ

فمَن ليَ بالعَيْنِ التي كنتَ مَرَّةً إليَّ بها في سَالفِ الدَّهرِ تُنْظرُ؟

فالاستفهام خرج إلى التمني لإنزال الممكن منزلة المستحيل؛ لإعلاء مكانة الممدوح لأن غيره لا يستطيع فعله الذي أنفذه مع الشاعر. ومثله في التمني قول الشاعر:

ألا عُمْرَ ولَّى مُسْتطاعٌ رجوعُهُ فيَرْأَبَ ما أثْأَتْ يدُ الغَفَلاتِ؟

فقد نَصب الشاعر فعل (يرأب) لأنه جواب تمنٍّ مقرون بالفاء... وهيهات أن يرجع العمر الذي ذهب إلى رجعة... إذ أفسدت يد الغفلات ذلك...[57] فاللغة البلاغية في هذا الأسلوب وغيره تنسلخ من معيارتها النحوية إلى طريقة أسلوبية موحية ومثيرة لا تنشغل ببنية الظاهرة اللغوية الجمالية لذاتها ولكنها في آن معاً تغوص في العلاقات الكامنة فيها.

11. النهي:

يخرج أسلوب الاستفهام إلى النهي عن فعل شيء ما كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَونهم؟ فالله أَحَقُّ أَنْ تخشَوه إن كنتم مؤمنين﴾ (التوبة 13/9) وأراد (لا تخشوهم)؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فلا تَخْشَوا الناس واخْشَوْنِ﴾ (المائدة 44/5). ومن أسلوب الاستفهام للنهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسانُ: ما غَرَّك بربِّك الكريم؟﴾ (الانفطار 6/82).

أراد (لا تغتر بالله ورحمته[58] واعمل لأخرتك)... وهذا يوضحه سياق سورة الانفطار ولا سيما الآية الأخيرة التاسعة عشرة ﴿يومَ لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً﴾. فالسياق في أسلوب الاستفهام السابق غير محايد ويصبح متمماً لدلالة المنهي عنها في بُعد إيحائي يعبر عن رمزية اللغة؛ باعتبار ما تحمله من وظائف بلاغية وفكرية.

12. التعظيم والتفخيم:

اللفظان كلاهما بمعنى واحد؛ وهو الإجلال والإكبار والتقدير. ويستعمل الاستفهام المجازي في هذا السياق الدلالي على نحو كبير..... فهذا المقصد البلاغي من الأساليب الجمالية المثيرة في الدراسات البلاغية وفي أغراض القول... فالتعظيم والتبجيل والتفخيم يرمي إليها المتكلم بأسلوب لفظي مباشر، وبأسلوب الاستفهام الحقيقي، ولكنه في الاستفهام المجازي يحمل طبيعة جمالية خاصة؛ كقول العَرْجي مفتخراً بنفسه:

أَضَاعوني وأَيَّ فتىً أضَاعوا ليومِ كريهةٍ وسَدادِ ثَغْرِ؟

فالشاعر رفع من شأنه وأوضح أن العشيرة خسرت به رجلاً عظيماً في الشدائد. وجمع المتنبي في مديح كافور الإخشيدي بين تعظيمه وبين استنكاره لارتياب الأعداء فيما خصّه الله على يديه من النصر والحظ السعيد:

أتلتمسُ الأعداءُ بعد الذي رَأَتْ قيامَ دليلٍ أو وضوحَ بيانِ؟

وفي التعظيم والإجلال الذي ورد في الرثاء يقول المتنبي مظهراً ما كان

للمرثي في حياته من صفات السيادة والشجاعة والكرم؛ ما جعل الشاعر يتحسر عليه ويتفجع لفقده:

مَنْ للمحافلِ والجحافلِ والسُّرَى فقدَتْ بفَقْدكَ نَيّراً لا يطلعُ

ومن اتخذْتَ على الضُّيوفِ خَليفةً ضاعوا ومِثلُكَ لا يكاد يُضَيِّعُ؟

فالأسلوب ـ هنا ـ أضفى على اللغة قدرة على التأثير فيما عبَّر عنه من المشاعر والأحاسيس. وكذلك خرج أسلوب الاستفهام المجازي في القرآن إلى معنى التعظيم والتفخيم في قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيّان مُرْساها﴾ (النازعات 42/79) وفي قوله: ﴿وما أدراك ما يوم الدين❖ ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ (الانفطار 17/82 ـ 18). وتؤكد الآية التاسعة عشرة من (الانفطار) معنى الاستعظام ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً؛ والأَمْرُ يومئذٍ للّه﴾. وكذلك نرى التفخيم في عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم[59]؛ والتي نحس بها قدسية الجوهر في منابعه الكونية التي تشعرنا بالوظيفة الإنسانية لإعادة صياغة الحياة، فضلاً عن التعظيم المؤسس في البنية اللغوية والبلاغية... ونجد نحواً من ذلك في قول ابن هانئ الأندلسي:

مَنْ منكم الملِكُ المطاعُ كأنَّه تحتَ السَّوابغِ تُبَّعٌ في حِمْيرُ؟

فهو يخاطب الجنود مستفسراً ومستعظماً: من منكم الملك الذي له من القوة والسلطان ما لممدوحه؛ وكأنه في ساحة المعركة ملك من ملوك اليمن (قبيلة حمير). فامتلاك الشاعر للغته الذاتية تجسد في حسه المدرك طريقة توزيعه للكلمات في المواقع التي تشعرنا بوظيفتها البلاغية المتجهة إلى التعظيم والإجلال.

13 ـ **التهويل:**

التهويل في اللغة: هو التخويف الشديد والتفزيع مع تعظيم شأن المُهَوَّلِ منه؛ وتعجيبه، ومثله التهاويل. ولعل هذا الأسلوب الاستفهامي المجازي من أعظم أنماط التصوير الإيحائي في القرآن الكريم سواء ورد في مشهد يوم القيامة أم

في غيره[60]، وعليه قوله تعالى: ﴿القارعةُ❖ ما القارعة❖، وما أدراك ما القارعة﴾ (القارعة 1/101 ـ 3)، وقوله: ﴿هل أتاك حَديثُ الغاشية❖ وجوه يومئذ خاشعة﴾ (الغاشية 1/88 ـ 2).

ويعدُّ استعمال أداة الاستفهام (ما) المبهمة في الدلالة من أعظم الاستعمالات في هذا المقام؛ وهي ذات إيحاء بديع في التأثير كما في قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الفصل؟﴾ (المرسلات 14/77). فسياق النص القرآني يبرز عظمة التصوير الذي يجسد الخوف في نفوس المكذبين بيوم القيامة كما تدل عليه الآيات الآتية ﴿إنَّما تُوعَدُون لواقع❖ فإذا النجوم طُمست❖ وإذا السماء فُرِجَتْ❖ وإذا الجبال نُسِفت❖ وإذا الرُّسل أُقِّتَتْ❖ لأيِّ يوم أُجِّلَتْ❖ ليوم الفَصْل❖ وما أدراك ما يوم الفَصْل❖ ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين﴾ (المرسلات 7/77 ـ 15) فالتعظيم والتهويل لم ينحصر في الاستفهام (لأي يوم أُجِّلتْ) أو (ما يوم الفَصْل؟)؛ وإنَّما كان السياق يقوي ذلك ويوضحه[61]. وعليه قول ساعدة بن جؤية في وصف نتائج معركة وقد تركت وراءها إما رجلاً حزيناً على قتلاه، وإما رجلاً يتجرع حسرات الموت في آخر حياته يعاني من عطش شديد:

ماذا هنالك من أَسْوانَ مكتئب وساهفٍ ثمِلٍ في صَعْدَةٍ حِطَمِ؟!

فالجمال البلاغي يقوم على التناغم بين سياقات الأسلوب وموازاة الحالة النفسية والفكرية للمخاطب؛ فالتشكيل الجمالي إنما هو تشكيل نفسي فكري واجتماعي يرتفع عن الحالة الزمانية المؤقتة...

14 ـ التكثير للتعظيم أو التهويل:

ربما لجأ الشعراء والعرب إلى الاستفهام المجازي الذي يدل على التكثير للتعظيم أو التهويل في أي معنىً من المعاني، أو صورة من الصور فتتعدد الإيحاءات وتعظم كقول المتنبي:

يَفْنَى الكلامُ ولا يحيط بوصفكم أَيحيطُ ما يَفْنَى بما لا يَنْفَدُ؟

فالشاعر يستكثر من فضل ممدوحه ويعظّم شأن ذلك فهو لكثرته لا

ينفد[62]. وقد استكثر أبو العلاء المعري من مات من البشر حتى أصبحت أجسادهم جزءاً من التراب الذي ندوسه. فدل كل منهما على أن الشاعر يدرك واقعه جمالياً بمثل ما يدركه فكرياً؛ فيقول المعري:

صَاحِ هَذي قبورُنا تَمْلأُ الرَّحْـ ـبَ فأَين القبورُ من عَهْد عادِ؟!

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظنُّ أَديْمَ الأَ رض إلا من هذه الأَجساد

فالمعري حين استكثر قبور الموتى، جعل الأرض مقبرة؛ داعياً الإنسان إلى التواضع والعفو والمسامحة. ولذا فإن جمالية الفن لم تسقط في المباشرة والوعظ التقريري، وعليه أيضاً قول الشاعر:

كمْ مِنْ دَنِيٍّ لها قد صِرْتُ أَتبعُهُ؟! ولو صَحا القلبُ عنها كان لي تَبَعَا

وهذا الأسلوب على شدة تقاربه مع التعظيم والتهويل يفترق عنهما بسَعة التخييل، في الوقت الذي يعيش حالة وعي الحياة ليصوغ منها موقفاً فكرياً يمتلئ بالمفاجآت والمؤثرات، وهو الذي يضفي عليه خصائص الجمال... فهذا الغرض - الذي جعلناه مستقلاً - يتصف بالمبالغة الفنية وصفاً ودلالة... ومن هنا تبرز جماليته؛ إذ لم يعد مجرد مبالغة في التهويل أو التعظيم لشخص ما؛ بل غدا هذا الأسلوب ذا وظيفة عددية تتمثل فيها عناصر التجربة الفنية بكل أبعادها البشرية والفكرية.

15. التعجب:

هو استعظام أمرٍ ظاهر المزية خافي السبب؛ وإذا خرج من أسلوب النحو السماعي والقياسي إلى الاستفهام فإنما يراد به المبالغة في إظهار التعجب[63]. كقول أبي تمام:

ماللخُطوبِ طغَتْ عليَّ كأنَّها جَهلتْ بأنَّ نَداك بالمِرْصَادِ؟

فهو يعجب من تراكم الشدائد عليه في حين أن ممدوحه كان لها بالمرصاد، وكقول المتنبي في وصف الحمى التي تعجب لشأنها كيف

استطاعت أن تحل في عظامه على كثرة الشدائد التي يعاني منها؛ فهو يستعظم فعلها ويتعجب منه فيقول:

أَبِنْتَ الدَّهْرِ عِندي كلُّ بنتٍ فكيفَ وصَلْتِ أَنْتِ من الزِّحام؟

ومثل هذا نجده في قول امرأة من صدر الإسلام تتعجب لابنها الذي أراد أن يؤدبها وقد بلغت من العمر عتياً؛ فهي تستعظم فعله وتستنكره على سبيل التعجب منه فتقول:

أَنْشا يمزّقُ أَثوابي يُؤَدّبني أَبْعَد شَيْبِي يبغي عندي الأَدَبا؟

وهذا الأسلوب كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَجعل الآلهة إلهاً❖ إن هذا لشيءٌ عُجَابٌ﴾(ص 38/ 5). وقوله تعالى: ﴿أَوَ عجبتم أنْ جاءَكم ذِكْرٌ من ربكم على رجل منكم...﴾ (الأعراف 7/ 63)، وانظر في السورة (69 و97 ـ 98)، وقوله تعالى على لسان سليمان ـ عليه السلام ـ ﴿مالي لا أَرَى الهُدْهُدَ﴾ ـ (النمل 27 /20). وقوله تعالى: ﴿مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ ـ الفرقان 7/25)، فالكفَّار يعجبون من نزول القرآن على بشر يأكل مثلهم ويشرب، فلو نزل القرآن على ملك لآمنوا كما تشير تتمة الآية ﴿لولا أُنْزِل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نَذيراً﴾. ومن التعجب قوله تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ (البقرة 2/ 28) [64].

فالاستفهام التعجبي في القرآن الكريم إنّما هو حرص من الله ـ سبحانه ـ على المؤمنين رحمة وشفقة بهم من إسرافهم في الغلط... بينما نجد التعجب في بعض الصور الاستفهامية لإظهار الحسرة والألم مما يحصل من أمر ما، كقول أحمد شوقي في الأحزاب التي تصارعت على الوصول إلى الوزارة، وهي تزعم أنها تريد حرية البلاد وبناء الأوطان:

إلامَ الخُلْفُ بينكمُ إلامَ وهذي الضّجة الكبرى علاما؟

وفيمَ يكيدُ بعضُكُمُ لبعضٍ وتُبدونَ العَداوةَ والخِصَاما؟

وأَيـــنَ ذهبـــتمُ بـــالحقِّ لمَّـــا ركبـــتمْ في قضـــيَّتهِ الظلامـــا؟!

وتنبثق جمالية هذا الأسلوب من صورته النفسية المتحفزة لحدثَ خارج الذات أو داخلها.

16 . التفجّع والتحسّر:

قد يخرج الاستفهام إلى معنى التفجع أو التحسر والألم؛ [65]وقد يدخل في التعجب والتكثير؛ حتى يغدو شبيهاً به، ويفترق عنه في أنه يتركز في الحسرة أولاً؛ وثانياً هو أشد ارتباطاً بتصورات المتكلم وأحواله، كقول شمس الدين الكوفي:

مـا للمنـازلِ أَصـبحَتْ لا أَهْلُهـا أَهْلـــي ولا جِيرانُهـــا جيرانـــي؟

فهذا الأسلوب وما قبله وما بعده حتى النهاية يستند إلى تشكيل جمالي لا ينفصل عن الواقع الاجتماعي، في الوقت الذي يلبي الرغبة الذاتية ويرسم جملة من العادات والتقاليد وعليه قول ابن الزيات (ت233 هـ) في رثاء زوجته:

أَلاَ مَـنْ رأى الطِّفـلَ المفـارقَ أُمَّـهُ بَعِيـدَ الكَـرَى عينـاهُ تَنْسَـكِبانِ؟

ويزور المتنبي سيف الدولة في مرضه الذي ظهر إثر دمل في جسمه فيتحسر على حاله؛ ويعجب كيف تنوبه الشكوى وكان المستغاث به في النائبات؛ فيقول:

وكيـف تُعِلُّـكَ الـدُّنيا بشـيءٍ؟ وأنـــتَ لعِلَّـــة الـــدنيا طبيـــبُ

وكيـف تَنوبُـكَ الشكوى بـداءٍ؟ وأنـــتَ المُسْـــتغاثُ لمـــا ينُـــوبُ

وهـذا الأسـلوب مبثـوث في القـرآن الكـريم كقولـه تعـالى علـى لسـان المجرمين: ﴿يا ويلتنا؛ مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها﴾ . (الكهف 18/ 49). وقال المتنبي:

لأَيِّ صـــروفِ الـــدهرِ فيـــه نُعاتـــبُ وأَيّ رزايـــــاه بـــــوِتْرٍ نُطالـــــبُ؟

فالمنوال البلاغي في هذا الأسلوب والذي قبله يكتسب لذته الجمالية من عمق التأثير الذاتي والروحي للنفس البشرية التي تصطدمها الحيرة والهموم والفواجع...

17 . **الإنكار:**

قد يكون المتلقي منكراً لأمرٍ من الأمور؛ وجاحداً له، فيقوم الخطاب بالانزياح التركيبي مرة أخرى فيأتي أسلوب الاستفهام الإنكاري لينكر على المخاطب إنكاره وليبطله أو يكذبه أو يوبخه، أو يقوم بتبكيته، ثم يقرر شيئاً ما. ويستعمل استعمال (يكون أو لا يكون أو لم يكن....). وجعله الجرجاني أحد أربعة مقاصد للاستفهام المجازي(66).

فمن استعمال الإنكار بما يكون قوله تعالى: ﴿أيحسَب الإنْسَان أَنْ لَنْ نَجمعَ عظامه﴾ (القيامة 75/ 3)، وقوله تعالى: ﴿أَيحسَب أن لم يَرَهُ أحد﴾ (البلد 7/90). ثم يخلصُ إلى التقرير في الآيات الثلاث التابعة ﴿أَلم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين،وهديناه النجدين﴾.

وكذلك يكون الإنكار للتقرير في قوله تعالى: ﴿أَليسَ اللّه بكافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر 39/ 36)، وقوله: ﴿كيف تكفرون وأنتم تُتْلى عليكم آيات اللّه وفيكم رسوله﴾ (آل عمران 3/ 101).

ويستعمل الاستفهام للإنكار والتكذيب (بما لم يكن)(67)، ويدخل فيه معنى التعجب؛ ليعلم منه قوة الإنكار وتعاظم صورته وحالته في النفس البشرية؛ كقوله تعالى: ﴿أَإِلهٌ مع اللّه؛ تعالى اللّه عما يشركون﴾ . (النمل 27/ 63). وقوله تعالى: ﴿أَصطَفَى البناتِ على البنين❖ مالكم؛ كيفَ تحكمون❖ أَفلا تَذكَّرون❖ أم لكم سلطانٌ مُبينٌ﴾، (الصافات 37/ 153 ـ 156).

ويلحظ المرء أن هذه الأسئلة كلها تكذب الكافرين بما زعموه عن اللّه من أن الملائكة لديه إناث اصطفاهم لذاته دون الذكور، كما يتضح من قوله

تعالى مستنكراً عليهم قولهم في الآيات التالية: ﴿فاسْتَفْتِهم أَلربِّكَ البناتُ ولهم البنونُ❖ أَمْ خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون❖ أَلا إِنَّهم من إفْكهِم ليقولون: وَلَد الله؛ وإنهم لكاذبون﴾(الصافات 37 / 149 ـ 152). ويعد هذا كله من الإنكار الإبطالي في المفهوم البلاغي.

ونلاحظ الإنكار الذي يبلغ حد التوبيخ في الاستفهام السابق: ﴿ألا إنهم من إفكهم﴾ولهذا يصبح التوبيخ جزءاً أصيلاً في الاستفهام الإنكاري حتى سمي عند الدارسين [68] بالإنكار التوبيخي؛ ويدخل في أسلوب (مالا يكون) كقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ (الأنعام 6/ 40)، وقوله: ﴿أَئِفْكاً آلهةً دُوْنَ الله تريدون﴾ (الصافات 37/ 86)؛ وعليه قول الشاعر:

أَلا ارعواءَ لَمَنْ وَلَّتْ شبيبتُهُ وآذنَتْ بمَشِيبٍ بعده هَرَمُ

وقد رأى عدد من الدارسين البلاغيين إدخال التوبيخ والتبكيت في الاستفهام الإنكاري لوقوعها في دائرة معنوية متشابهة، وهي دائرة تستجيب لحاجات نفسية وفكرية معينة عند المتكلم قبل المخاطب، ولكننا سنخصص كلاً منهما بالحديث المنفصل؛ لأننا نرى أنَّهما مقصودان لذاتهما قبل الإنكار.وقبل أن نسوق ذلك نقدم أسلوب الاستفهام الاستنكاري (بما لا يكون) كما جاء على لسان امرئ القيس الذي يتهكم ويستنكر تهديد عدوه له؛ ويكذبه:

أَيَقْتُلُني والمشرَفيُّ مُضَاجِعي ومَسْنونةٌ زُرْقٌ كأَنْيابِ أَغْوالِ؟!

أما المتنبي فإنه لا يليق به أن يكفر نعمة ممدوحه وقد غمره بالمجد والسؤدد، فهو يستنكر على نفسه أن تفعل ذلك؛ بل إن ذلك لا يكون منه في قوله:

أَأَكفرُكَ النَّعْماءَ عندي وقد عَليَّ نُموَّ الفجر والفَجْرُ ساطعُ؟!
وأَنت الذي أعززْتَني بعْدَ ذِلَّتي فلا القولُ مَخْفوضٌ ولا الطَّرْفُ

فالنشوة ليست مقتصرة على سماع إيقاعات هذا الشعر، وإنما في ابتكار استعارات جديدة مجازية وفق أسلوب الاستفهام الإنكاري.

18 . التوبيخ:

إن الإيحاء الجمالي المثير أن يغدو الأسلوب الاستفهامي مقصوداً للتوبيخ على فعل من الأفعال، أو على رأي من الآراء.... والإنكار وحده غير كاف في هذه الحال كما في قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رُسُل منكم يقصون عليكم آياتي...﴾ (الأنعام 6/ 130)، فالله ـ سبحانه ـ يخاطب الكافرين على جهة ا لتوبيخ: ﴿ألم يأتكم..﴾. وعلى الرغم من هذا لا يؤمنون[69]؛ بل هناك من رغبوا عن الزواج بالإناث كما هي سنة الخلق وأصروا بقوة على إتيان الذكور. لذا وبخ الله هؤلاء قائلاً: ﴿أتأتون الذُّكران من العالمين❖ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم؛ بل أنتم قوم عادون﴾ ـ (الشعراء 26/ 165 ـ 166). ومن الناس من يطمع في مال زوج طلقها؛ ولهذا يوبخهم الله بقوله: ﴿وإن أَرَدْتم استبدال زَوْج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً، فلا تأخذوا منه شيئاً؛ أتأخذونه بهتاناً وإثماً مُبيناً﴾ (النساء 4/ 20). فبعد أن نهاهم عن فعل ذلك فعلوه؛ لهذا وبخهم قائلاً: ﴿أتأخذونَه...﴾، أما حسان بن ثابت فقد وجد جملة من الفرسان يتخاذلون عن المعركة ويتجمعون مثل النساء عند التنانير؛ فقال: موبخاً إياهم بأسلوب استفهامي مجازي ذي تشكيل جمالي ولغوي مثير بوظيفته؛ فقال:

أَلا طعانَ، أَلا فُرسانَ عاديةٍ إلاَّ تَجَشُّؤُكم حَوْلَ التنانيرُ؟!

وقال إبراهيم ناجي يخاطب أُمَّته:

الله أكبرُ ما هذا المنامُ؟ فَقَدْ شكاكمُ المَهْدُ واشتاقتكُمُ التُّرَبُ

19 . التبكيت:

لعل التبكيت أعلى درجة من التوبيخ فهو توبيخ وتقريع وتعنيف واستنكار؛ والاستفهام يخرج إلى هذا المعنى في كثير من آيات القرآن الكريم

وفي كلام العرب[70]. ويستعمل في أمر لا يجوز أن يقوم الإنسان به أو يفكر فيه كقوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون اللّه﴾ ـ (المائدة 5/ 116)، فاللّه سبحانه يخاطب عيسى(عليه السلام) مستنكراً عليه ومبكتاً فعل أتباعه بإشراك عبيده في عبادته فقال عيسى: ﴿سُبْحانَكَ ما يكونُ لي أَنْ أَقولَ ما ليس لي بحق؛ إن كنتُ قلتُهُ فقد علمتَه؛ تعلم ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسك؛ إنك أنت علاَّم الغيوب❖ ما قلتُ إلاَّ ما أَمَرْتَني به؛ أَنِ اعبدُوا اللّه رَبِّي وربَّكم﴾ ـ (المائدة 5/ 116 ـ 117).

ويبكّت (لوط) قومه بقوله: ﴿أَتَاتون الفاحشةَ ما سَبَقَكُمْ بها من أَحَدٍ من العالمين﴾ (الأعراف ـ 7/ 80)؛ وهو قول تتآزر فيه همزة الاستفهام مع السياق لتخلق لدى المتلقي عملية الاستهجان من عمل القوم. ومثله قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوا؛ قال: أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً، أم ماذا كنتم تعملون﴾ ـ (النمل 27 /84). ولهذا كان جواب الاستفهام الذي خرج إلى التبكيت[71] في قوله تعالى: ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا، فهم لاينطقون﴾ (النمل 27 /85).

إن فاعلية التناسق في التأليف إحدى عوامل التأثير النفسي والفكري كما أرسته الأساليب المتقدمة؛ وهي مبنية على ما عرف عند عبد القاهر بنظرية النظم واقترانها بعلم النمو وأثره في توخي المعاني والصور فضلاً عن أنه يقول:"إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب؛ وكانت النفوس لها أطرب". وهذا عينه الذي ترمي إليه الأساليب المجازية[72].

20 ـ الوعيد والتهديد:

الوعيد أو التوعد، هو التهديد أو الإنذار بالشر؛ والوعيد ـ غالباً ـ يكون بالشر والويل والثبور؛ وفعله أَوْعَد [73]. وهو أَحد المعاني التي يخرج إليها أسلوب الاستفهام، وقد يجتمعان توكيداً وتحقيقاً في اللفظ لخلق علاقات تركيبية

جديدة ذات فاعلية كبرى في النفس والعقل؛ كما في قول النابغة الذبياني:

أَتُوعِـدُ عَبْـداً لم يَخُنْـكَ أَمانـةً وتــتركُ عَبْــدَاً ظالمــاً وهــو راتــعُ؟!

فالفعل استعمل في التهديد والإنذار بالشر ثم أكدت همزة الاستفهام ذلك المقصد، فالنعمان يتهدد النابغة الذي لم يرتكب إثماً؛ بينما ترك من أَذنب فحاد عن الحق وجار على الشاعر.

وقد يأتي الاستفهام للتهديد من دون اجتماعه مع فعل (أوعد) وصيغه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوّلين﴾ ـ (المرسلات 77/ 16).والدليل على الوعيد بالشر المستطير ما نعرضه من آيات قرآنية مثل: ﴿ثم نُتْبعهم الآخِرين❖ كذلك نفعل بالمجرمين❖ ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ ـ (المرسلات 77 /17 ـ 19)، فطرائق بناء الأسلوب توحي بعناصر التهديد والوعيد. ونلمح هذا التهديد والإنذار في سورة الفيل(105/ 1 ـ 2): ﴿ألم تَرَ كيف فَعَلَ رَبُّكَ بأَصْحَاب الفيْل❖ أَلم يجعلْ كيدهم في تضليل؟﴾. وقوله تعالى في سورة الماعون (1/107):﴿أرأيت الذي يُكذِّب بالدين؟﴾ [74]. فالوظيفة النفسية والفكرية تبرز بالوظيفة البلاغية الجمالية في سياق العلاقات التبادلية بين أسلوب الاستفهام ومضمونه...

21. التهكم:

هو الاستهزاء؛ أو الزراية على الآخر بشيء ما والغضب عليه... والوقوع فيه بقول السوء[75]؛ كما في قول زهير بن أبي سُلْمى:

ومــا أَدْرِي وسَــوْفَ إِخــالُ أَدْري أَقــــومٌ آلُ حِصْــــنٍ أَمْ نِســــاءُ؟

فزهير يستهجن من القوم، ويستخفّ بهم؛ فهو لا يتحقق من جنسهم؛ إن كانوا ذكوراً أم إناثاً... وهذا ما بينه قوله: (أقوم...). ومثله نجده في قول المتنبي الذي لم يعرف وجه الدُّمُسْتقَ من قفاه حين أتى لينازل سيف الدولة:

أَفِي كُلِّ يومٍ ذا الدُّمُسْتقُ قادمٌ قَفــاهُ علــى الإِقْــدَام للوَجْــهِ لائــمُ؟

وعليه قوله تعالى: ﴿أَصَلاتُك تأمُركَ أن نترك ما يعبد آباؤنا؛ أو أن نَفْعَل في أموالنا ما نشاء﴾ (هود 11/ 87). ثم تبين سياق الآيات بعدها وضوح تهكم القوم من شُعيب ولاسيما قوله تعالى: ﴿ما أُريدُ أَنْ أُخالفكم إلى ما أَنْهَاكم عنْهُ، إِنْ أُريدُ إلاَّ الإصلاحَ ما استطعْتُ﴾ (هود 11/ 88).

هكذا تبينا أن كل أداة طريقتها الإيحائية في التهكم؛ ولها مذاقها الخاص كما في قوله تعالى: ﴿أَفنَجْعلُ المسلمين كالمجرمين❖ مالكم؛ كيف تحكمون﴾ (القلم 68/ 35 ـ 36). فالهمزة و(ما) و(كيف) ثلاثتها تدل على التهكم والسخرية ولكنها تتباين في الإيحاء إبلاغاً وتأثيراً. وقال أبو فراس الحمداني:

كيف أَرْجو الصَّلاحَ من أَمْرِ قَوْمٍ ضَــيَّعوا الحَــزْم فيــه أَيَّ ضَــياع؟!

فالتشكيل البلاغي الجمالي لهذا الأسلوب يجسد الجوهر النفسي والإنساني، ومن ثم يغدو موازياً له، وكذا نراه في الأسلوب الآتي.

22. **التحقير أو الازدراء:**

هو تصغير شأن المخاطب والاستخفاف به، والحطّ من منزلته؛ كقولنا: ﴿أَهذا الذي أُعجبت به كثيراً ومدحته؟﴾، وكقول عبدالله بن أبي عُيينة:

فدعِ الوعيدَ فما وَعيدُكَ ضَائري أَطنــيْنُ أَجْنَحَــةِ الــذُّبَابِ يَضــيْرُ؟!

فإذا ظن أن طنين أجنحة الذباب يؤذي فإن وعيده يمكن أن يضره... وذلك ما لا يكون... فقد شبه الشاعر وعيد عدوه بصوت أجنحة الذباب.

وهذا الضرب من الاستفهام المجازي سماه الجرجاني (الخروج إلى معنى التمثيل والتشبيه)؛ باعتباره أحد أساليب الاستفهام[76].... فإذا كان معنى التشبيه والتمثيل يدخل في كثير من صور الأساليب المجازية التي تحدثنا عنها أدركنا لماذا اختصر الجرجاني الاستفهام المجازي في أربعة أساليب سنشير

إليها في آخر كلامنا هذا... فضلاً عن أنه آثر تلك التسمية اتساقاً مع مفهومه لنظرية النظم.

ومن هذا الضرْب ما وقع في هجاء المتنبي لكافور وانتقاصه والحط من قَدْره:

مِنْ أَيَّةِ الطُّرْقِ يأتي نحوك الكرمُ؟ أيـن المحَـاجمُ يـا كـافورُ والجلَـمُ؟

فهو ينعته بضَعة الأصل والحسب، وقد كان عبداً لحجَّام بمصر ثم اشتراه الإخشيد، ومن ثم صار حاكم مصر [77]. ولذلك يتساءل: (أين أدوات الحجامة بكؤوسها ومشراطها؟).

ومن هذا النمط الاستفهامي قوله تعالى: ﴿وإذا رأَوكَ إنْ يتخذُونَك إلاَّ هُزُواً؛ أَهَـذا الـذي بعـثَ اللّه رسـولاً؟!﴾ ـ (الفرقان 25/ 41). ولهذا يسخر منهم اللّه سبحانه وتعالى لأنهم جعلوا أهواءهم آلهة لهم فقال: ﴿أَرَأَيْتَ من اتّخذَ إِلَهَهُ هواهُ، أَفأَنْتَ تكون عليه وكيلاً؟﴾ (الفرقان 43/25). فالسؤال الأول: ﴿أرأيت....﴾. تحقيرواستهزاء؛ والسؤال الثاني: ﴿أفأَنت...﴾ لنفي وكالة الرسول عنهم، بدليل الآية التالية: ﴿أَم تَحْسَبُ أَنَّ أكثرهم يسمعونَ أو يَعقلونَ، إِنْ هُمْ إلاَّ كالأنعَام؛ بل هُمْ أَضلُّ سبيلاً﴾ ـ (الفرقان 25 /44). فالنسق البلاغي اللغوي في أسلوب الاستفهام في هذا المقام وغيره ينتظم وفق بنية سياقية فكرية واجتماعية ونفسية و.... ومن ثم يصبح التشكيل الجمالي في إطار العلاقات اللغوية التبادلية نظاماً لغوياً فعّالاً يختلف عن مفهوم النظام اللغوي العادي. وهذا ما نراه أيضاً في الأسلوبين القادمين.

23 ـ الاستبعاد:

هذا نمط بلاغي للاستفهام المجازي يوضح فيه المتكلم أن حدوث أمرٍ ما يكاد يكون متخيلاً أو مستحيلاً؛ كقول أبي تمام:

مَـنْ لـي بإنسـانٍ إذا أَغْضَـبْتُهُ وجَهَلْـتُ كـان الحِلْـمُ ردَّ جَوابِـهِ؟

فأبو تمام يستبعد وجود إنسان حليم لا يغضب إذا أهين، وكذلك يستبعد الشعراء أن تنطق الأطلال وترد على أسئلتهم؛ إذ ليس لها عهد بالتكلم كقول أحدهم:

هل بالطُّلولِ لسَائلٍ ردُّ؟ أم هَلْ لها بتكلم عَهْدُ؟

وكذلك المتنبي يستبعد وجود من يحفظ الصنيع أو المعروف الذي أسدي إليه في قوله:

وما قَتَلَ الأَحْرارَ كالعَفْوِ عنهُمُ ومَنْ لكَ بالحُرِّ الذي يَحْفَظُ اليَدا؟!

ومن الاستفهام الذي خرج إلى أسلوب الاستبعاد قوله تعالى: ﴿أنَّى لهم الذِّكْرى، وقد جاءهم رسولٌ مُبينٌ❖ثم تَوَلَّوا عنه، وقالوا :مُعَلَّم مجنُون﴾، (الدخان 13/44 ـ 14). أي أن الله استبعدَ عنهم الهداية والذكرى بعد أن جاء الرسول الكريم وبين لهم طريق الحق لكنهم تولَّوا عنه.

وقد يجتمع الاستبعاد والتعجب في الاستفهام المجازي كما في قوله تعالى: ﴿قالت: يا وَيْلَتَى؛ أَأَلِدُ، وَأَنَا عجوزٌ، وهذا بَعْلِي شيخاً، إن هذا لشيءٌ عجيب﴾، (هود 72/11). وهو استبعاد من حيث إنَّ الله أجرى الولادة في صغيرات السن من النساء وفي الشباب، لذلك استبعدت ولادتها وتعجبت لشأن ذلك الاستبعاد....[78].

والاستبعاد والتعجب يجتمعان في قوله تعالى على لسان ذلك الإنسان المستهتر الذي فسدت حياته الدنيا؛ لأنه استبعد حدوث يوم القيامة، وظن أنه لن يبعث من جديد: ﴿يسأل أيَّان يَومُ القيامة﴾ـ (القيامة 75/ 6). وقد أوضح هذا المقصد من الاستفهام سياق الآيات المتقدمة ﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه❖ بلى قادرين على أن نُسَوّيَ بنانه﴾ ـ (القيامة 75/ 3 ـ 4). فطاقات الاستفهام المجازي ـ هنا ـ تتضمن صوراً جمالية لا ترتبط بالمصادفة أو العفوية وإنما تتشكل فيها عناصر الوعي بالموقف واللغة.

24. **الاستبطاء:**

هذا الغرض ليس بمعنى استبعاد وقوع الفعل أو الحدث؛ وإنما بمعنى خروج الاستفهام إلى فعل محقق بالضرورة؛ ويؤمن المرء بحدوثه؛ ولكنه يستبطئ وقوعه إما بسبب الاستهتار والعبث وإمَّا بسبب استنكاره، وإما بسبب تأخيره، ... وإما بسبب آخر لا يظهر[79]. والاستهتار والعبث إنما يقوم على مفهوم الوعي به ومعرفة أبعاده كلها. فمن الاستبطاء بسبب الاستهتار والعبث قول الشاعر:

حتَّى متى أَنْتَ في لهْوٍ وفي لعبٍ والموتُ نحوكَ يهوي فاتحاً فاهُ؟!

ومن الاستبطاء بسبب التأخر في حدوثه على الإيمان به ما جاء في قوله تعالى: ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نَصْرُ اللّه﴾، (البقرة 214/2)... وهناك أنماط الاستبطاء بسبب التردد والعناد والكفر، وعليه قوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعدُ؛ إن كنتم صادقين﴾ ـ (يونس 10/ 48)، وكذا قوله تعالى: ﴿يسألون أيانَ يومُ الدين﴾ (الذاريات 51 /12). فالمعنى على حكاية أُناس كفروا باللّه فاستفسروا عن يوم القيامة بعد أن أبطأ عليهم.... وكان الاستبطاء مدعاة لهم في تكذيب المؤمنين[80].

وقد يكون الاستبطاء وقوع الغنى لأن الفقر والشقاء قد لزم المرء كما يقول المتنبي؛ ولذلك زحم البيت بالاستفهام المجازي (إلى أين... حتى متى.... إلى كم):

إِلَى أَيِّ حِيْنٍ أنتَ في زي مُحْرِمٍ؟ وحتَّى متى في شِقْوةٍ؟ وإلى كمِ؟

وقد يكون الاستفهام لاستبطاء ظهور الصباح؛ فقد أبطأ الليل بنجومه بعد أن أنهك التعب المتنبي لسيره وسهره الطويل يقطع الفيافي فقال:

حَتَّامَ نحن نُسَاري النجْم في وماسُرَاه على خُفٍّ ولا قَدَمِ

25. **معاقبة حرف القسم:**

قد تستعمل همزة الاستفهام عوضاً من حرف القسم (الباء) لأصالته في القسم؛ كقولنا: آللهِ لقد كان كذا وكذا.... واختلف في جر المقسم به هل يكون بالهمزة لأنها قامت مقام (الباء) أو يكون بحرف الجر المحذوف (الباء)؛ وتقديره (أبالله)؟[81].

26. التنبيه ولفت النظر:

قد يخرج الاستفهام إلى تنبيه الخاطب على أمرٍ ما، أو تذكيره به ولفت نظره إليه؛ أو إلى أي شأن[82] كقوله تعالى: ﴿أَلَم تَرَ إلى ربِّك كيفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (الفرقان 44/ 45)؛ وقوله: ﴿ألم تر أن الله قد أَنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مُخْضَرَّة﴾ (الحج 22/ 63)، وقوله: ﴿فأين تذهبون﴾ ـ (التكوير 26/81).

ومن ذلك قول المتنبي في كافور؛ ويلفت انتباهه إلى أن الحظَّ والسعد ملازم له؛ ماجعله يتساءل: لماذا يحتاج إلى القِسِيِّ ويُعْنى بالأَسنَّة والرماح؟:

فمالكَ تختار القِسِيَّ وإنَّما عن السَّعْدِ يَرْمي دونك الثَّقلانِ؟

ومالك تُعْنَى بالأَسِنَّة والقَنا وجَدُّكَ طَعَّانٌ بغَير سِنان؟

ومن التنبيه على الخطأ قوله تعالى: ﴿أَتستبدلون الذي هو أَدْنَى بالذي هوخَيْرٌ﴾؟ (البقرة 2/ 61). فالله سبحانه وتعالى ينبه قوم موسى على خطأٍ فعَلوه حين طالبوه أن يخرج لهم الله من الأرض الفوم والبصل [83]. ثم ختمت الآية بقوله: ﴿ذلك بما عَصَوا وكانوا يَعْتَدُون﴾. وعلى هذا المعنى قول إبراهيم ناجي:

أيُّ البلادِ هو السَّعيد؟ وأهله يتنابذونَ تنابذَ الأَضْدَادِ

27. إفادة الاستفهام العديد من المعاني:

أفرد الزمخشري هذا النمط من أسلوب الاستفهام المجازي بالحديث؛ ورأى أنه قد يجتمع التقرير والتوبيخ والتعجب في المقصد كما في قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنْسون أَنْفُسَكم﴾ (البقرة 2/ 44)، فقال: ﴿أتأمرون:

الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجب من حالهم)[84].

وقد يفيد الإنكار والتعجب كما في قوله تعالى: ﴿وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم؛ ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ (البقرة 28/2)[85].

وكنا رأينا أمثلة كثيرة من ذلك فيما مر بنا سابقاً من أغراض الاستفهام المجازي ولاسيما بيت المتنبي الذي خرج إلى الهجاء ومزجه بالتوبيخ والتقريع والتهكم حين خاطب كافوراً:

من أَيَّةِ الطُّرْقِ يأتي نَحْوَكَ الكَرَمُ أَينَ المحاجمُ يا كافُورُ و الجَلَمُ؟

ولعل الجمع بين عدد من الأغراض في أسلوب الاستفهام المجازي كان ناتجاً من اشتماله على مقاصد عدة؛ كقول المتنبي السابق، وقول أبي تمام الذي يفيد التهكم والإنكار والتكذيب والتوبيخ للمنّجمين:

أَينَ الروايةُ؟ بل أين النجومُ وما صاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومن كَذِبِ؟

وإذا كنا قد استطعنا إثبات الأنواع السابقة للاستفهام المجازي فإن الأذواق المرهفة والقرائن السياقية قادرة على إيجاد أنواع أخرى له....

وتلك الأنواع التي جمعناها من الدراسات البلاغية افتقرت إلى أنماط أخرى عند الدارسين الذين عنوا بعلوم القرآن وبلاغته؛ فأثبتوا أنواعاً أخرى غيرها؛ وإن ساقوا بعض أنماط سابقة، كما أنهم قسموا الاستفهام المجازي تقسيمات مغايرة كما نجده ـ مثلاً ـ عند الجرجاني (ت 471 هـ)، والزمخشري (ت 538 هـ)، والزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله (ت 794هـ) وغيرهم[86].

وحين نتناول أساليب الاستفهام المجازية التي انتهت إلى انزياح في التركيب وفي الدلالة لابد أن نستحضر الدوافع وراءها، عند المتكلم والمخاطب على

السواء... ومن ثم لابد من استحضار الإطار النفسي والاجتماعي والفكري والزمني الذي قيل فيه هذا الأسلوب أو ذاك دون فَصْله عن السياق النصي الذي يرمي إلى هدف ما. ولعل المعاناة الحقيقية والفهم الدقيق لأسلوب من الأساليب يساعدان في إنتاج جمالية جديدة ومبدعة لقراءة نص من النصوص.

وتعد قراءة عبد القاهر الجرجاني للنص القرآني متميّزة في هذا الاتجاه؛ فتناول الجملة القرآنية المؤلفة باعتبار أساليبها ظاهرة لغوية بلاغية جمالية معجزة تختزن في بنيتها إشارات لا متناهية من الصور الفنية الدلالية.... فكانت نظريته البديعة (نظرية النظم) مفتاحاً لعلوم جديدة. وفيها رصد أثر البنية اللغوية ولاسيما الأثر النحوي والصوتي والصرفي فانتهى إلى تقسيم جديد لأساليب الاستفهام المجازية في النّص القرآني؛ في إطار التقديم والتأخير والحذف والوصل والفصل... و.... فرآها أربعة أقسام: [87].

1 ـ تقديم الاسم وتقديم الفعل الماضي مع الهمزة التي للاستفهام.

2 ـ تقديم الفعل وتقديم الاسم والفعل المضارع في الاستفهام.

3 ـ الاستفهام الذي يخرج إلى معنى الإنكار.

4 ـ الاستفهام الذي يخرج إلى معنى التمثيل والتشبيه.

أما الزمخشري الذي حذا حذو الجرجاني في تقديم الاسم في الاستفهام، وفي تقديم الفعل فإنه أضاف جملة من أساليب الاستفهام الأخرى إلى ما جاء به البلاغيون أو شرحها فاتفق معهم في أقسام واختلف في أقسام. أمَّا ما اتفق معهم فيه فهو الآتي:

1 ـ خروج الاستفهام المجازي إلى معنى التفخيم.

2 ـ خروج الاستفهام المجازي إلى تبكيت المخاطب.

3 ـ خروج الاستفهام المجازي إلى التحقيق.

4 ـ خروج الاستفهام المجازي إلى الاستبعاد.

obeikandl.com

5 ـ خروج الاستفهام المجازي إلى الإنكار.

6 ـ خروج الاستفهام المجازي إلى التوبيخ.

7 ـ خروج الاستفهام المجازي إلى عدد من المعاني.

وانفرد بالحديث عن خروج الاستفهام المجازي إلى غرض آخر؛ وهو أن يكون الجواب هو المقصد من السؤال؛ وذلك لأن للجواب أثراً في سياق الكلام[88]. والغرض منه كما في قوله تعالى: ﴿ قال: رَبِّي أنَّى يكون لي غُلامٌ، وكانت امرأتي عاقراً، وقد بلغْتُ من الكِبَر عِتِياً﴾ (مريم 19/ 8) توكيد المعنى، وإزالة أي توهم لدى السامع؛ وبهذا تكمن جماليته البديعة.

وهناك أمور أخرى تحتاج إلى وقفة متأنية في دراسة منفصلة...

فالزمخشري لم يكتف بالنظر إلى نمط التأليف، وإنما جرى وراء الدلائل والإشارات السياقية للنص القرآني.... فأنتج لنا مفاهيم بلاغية بديعة في تفسيره للقرآن الكريم في تفسيره المعروف بالكشاف [89].

أما أبو عبد الله الزركشي فقد قسم الاستفهام قسمين؛ الاستفهام بمعنى الخبر؛ والاستفهام بمعنى الإنشاء[90]:

1 ـ الاستفهام بمعنى الخبر:

وله نوعان أولهما للنفي ويسمّى الاستفهام الإنكاري؛ فالمعنى منفي في أسلوب الاستفهام وتصحبه (إلا) كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الفاسقون؟﴾ (الأحقاف 46/ 35). وثانيهما للإثبات ويسمى التقرير؛ ويأتي النفي بعد الاستفهام كقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بربكم﴾ (الأعراف 7/ 172).

فالنفي أكد معنى الاستفهام الذي جاء للإثبات؛ وقد يجتمع مع الإثبات أغراض أخرى كالافتخار والتوبيخ والعقاب والتبكيت والتسوية والتعظيم والتهويل؛ والتسهيل والتخفيف والتفجع والتكثير والاسترشاد.

2 ـ الاستفهام بمعنى الإنشاء:

وله أنواع كثيرة؛ منها الطلب والنهي والتحذير والتذكير والتنبيه

obeikandl.com

والترغيب والدعاء والعرض والتحضيض والاستبطاء والتيئيس، والإيناس والتهكم والاستهزاء والتحقير والتعجب والاستبعاد والتوبيخ.

ومهما تكن قيمة هذا التقسيم فإنه يدل على التداخل بين القسمين في الأغراض؛ كما يدل على التكرار...

ولعل ما انتهينا إليه من أقسام أكثر وضوحاً وإفادة... ويسراً على المتلقي؛ وتصبح الدلالة المجازية أعظم انفتاحاً على مفهوم الدراسات البلاغية الحديثة اللغوية والأسلوبية؛ وهي في الوقت نفسه تظل مخلصة للجذور التي انبثقت منها.

وبناء على ما تقدم كله اتضح لنا أن أسلوب الاستفهام المجازي هو كل أسلوب ينزاح من حقل إلى حقل دلالي آخر وتشكيل ذلك بأساليب جمالية مثيرة في النفس تمتاز بالتموج الصوتي والتنوع الإيقاعي الصادر عن تنوع أدوات الاستفهام؛ وإقامة التناسب بينها وبين العناصر الفنية الأخرى؛ ومن ثم دقة إيحائها بدلالاتها.

ولا يمكن أن يفوتنا التذكير بما تتصل به جمالية الاستفهام المجازي من إيحاءات عظيمة في الدلالة؛ ما يجعلها تتجه إلى الإيجاز والاقتصاد اللغوي... وبهذا تحث الفكر على تأمل واعٍ ومرهف لكل نمط استفهامي حتى يستطيع المتلقي الانفتاح على هذا النمط أو ذاك... وعلى الرغم من تأثر حازم القرطاجني بمفاهيم أرسطو البلاغية فإنه طرح للمرة الأولى المفهوم الجمالي للبلاغة بصورة دقيقة تنطبق على ما تقدم كله فيقول: ((يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية في نفسه ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه في النفوس من جهة هيأته ودلالته، ومن جهة ماتكون عليه تلك الصور الذهنية في أنفسها، ومن جهة مواقعها من النفوس، من جهة هيئاتها ودلالاتها على ما خارج الذهن، ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تلك المعاني الذهنية صور لها، وأمثلة دالة عليها، ومن جهة مواقع تلك الأشياء من النفوس"[91].

obeikandl.com

ومن ثم يعتمد في ذلك كله إقامة التناسب في كل جماليات الكلام المسموع والمكتوب؛ وهو أول من أظهر نظرية التناسب بشكل جمالي بديع يذكرنا بنظرية النظم عند عبد القاهر، كما يذكرنا بمعايير فَصاحة اللفظ المؤلف عند ابن سنان الخفاجي ومن جاء بعده... فقال: ((ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع؛ فيعرف حال ما خفيت به طرق الاعتبارات من ذلك بحال ما وضحت فيه طرق الاعتبار، وتوجد طرقهم في جميع ذلك؛ تترامى إلى جهة واحدة من اعتماد ما يلائم واجتناب ما ينافر))[92].

إن تأمل الاستفهام أياً كانت طبيعتها تحقق لنا القدرة على التناسب الذي يخلق المتعة الفنية وتقوم على التلاؤم بينها وبين الجوهر الذي تحمله في تنظيم دقيق... وتناسق فاعل .وقد أكدت مقولة حازم القرطاجني في مفهوم التناسب جمالية خلق التناغم بين المتكلم والمخاطب في وضعهما النفسي والاجتماعي والفكري... وفق مقتضيات مفهوم البلاغة لكل مقام مقال؛ ووفق مقتضى الحال والخطاب، وبهذا أسس لقراءة المتلقي للنص الأدبي نوعاً ما مع غيره[93]. ولعل هذا كله ما نراه في بقية الأساليب كأسلوب التّمني والنداء... فكل أسلوب بلاغي مجازي إنما يقوم على مفهوم التداول النقدي المعروف بين الأساليب، لأن الأسلوب المجازي لم يعد يستعمل على الحقيقة.

ولهذا تصبح الرؤية الجمالية النقدية جزءاً فاعلاً في فهم الأسلوب لأنه في الأصل نسق لغوي في بنية متكاملة لا تضيق بالإشارات الكثيرة، والتحولات الفنية الثرية بالدلائل... ما يحدونا إلى الدخول في تأمل العبارة البلاغية؛ لا باعتبارها مادة سحرية خفية؛ بل لكونها أنموذجاً لغوياً مشكلاً بصورة إبداعية تدعو القارئ إلى التدقيق فيها؛ وفهمها وتحليلها؛ لإنجاز إبداع جديد يصدر عنها دون أن يقتلها...

ومن هنا نخرج إلى أسلوب التمني لنقرأه في ضوء ذلك.